تطور الفكرة العربية في مصر

عبد العاطي محمد

لم يحظ موضوع في الادب السياسي العربي بالكتابة والتحليل مثلما حظي موضوع القومية العربية، فهناك من تصدوا لتراث الحياة العربية والشخصية العربية، وآخرون اجتهدوا في تفسير مقومات القومية العربية كايدلوجية وعقيدة فكرية، وفريق ثالث ناقش تاريخ الحركات الوحدوية فاوضح مزاياها وعيوبها.

وكان نصيب مصر من الكتابة عن الفكرة العربية كبيراً وهاماً، ليس هذا بحكم ما لمصر من موقع استراتيجي وسياسي وحضاري فحسب، وانما لان تطور الفكرة العربية فيها كان له طابع خاص ومنفرد، واثار من التساؤلات وعلامات الاستفهام الكثير. فالبعض قال بان ارتباط مصر بحركة القومية العربية ارتباط ضعيف، واستند في هذا إلى تأخر ظهور الفكرة العربية في مصر، وإلى قوة الاتجاه اللاّعروبي الذي رفع لواء الشخصية المصرية، وهناك من أخذوا على منحى النخبة المثقفة في تصور المفهوم القومي العربي انه لا يتماشى مع الطابع الايديولوجي العام، لحركة القومية العربية فطالبوها بالمزيد.

والحقيقة أن صلة مصر بالحركة القومية العربية لم تنقطع في اي مرحلة من مراحلها، ولكن اسهامها في تشكيل البناء الفكري والاسلوب السياسي اختلف من فترة لاخرى طبقا لاختلاف العوامل الخارجية التي شكلت تحديا فكريا واجتماعيا وسياسيا، واختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

والتقدير الأقرب إلى الموضوعية في تحليل الفكرة العربية في مصر يقتضي من الباحث أن يضعها في سياق ظروفها السياسية والاجتماعية، ويقارنها بالاطار الاوسع لها، أي بالاشكال والمضامين التي اتخذتها في الاقطار العربية الاخرى. ثم تتبع التطور التاريخي لموقف القوى المؤيدة والمعارضة لها وبيان مدى التغير الذي حدث فيها.

١ — مصر وبدايات الحركة العربية:

كانت السلطنة العثمانية تعاني من الاضطراب الداخلي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد جاءت مصادر الاضطرابات من داخل السلطنة ذاتها ومن الولايات العربية التي في حوزتها. وكان وراء ذلك اسباب مختلفة منها اتساع مجال الافكار الحديثة عن الديمقراطية والدستور والفكر الحر عموما، وهي أفكار جاءت مع اتصال القوى

بين الشرق والحضارة الغربية والذي كانت الحملة الفرنسية على مصر اول مظاهره. كما صاحب الانفتاح على الحضارة الغربية حالة اليقظة والبعث التي انتابت المفكرين المصلحين الاسلاميين الذين ظهروا في تلك الفترة.

وكان الصدام بين القوى الاقطاعية التركية والقوى الأخرى من كبار الأعيان والتجار وابنائهم الذين شكلوا طليعة القوى الشابة المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد. والتي وجدت مصلحتها في تبني افكار الحياة النيابية والدستورية والاصلاح. وقد اعتقدوا أنه لا يمكن المحافظة على الامبراطورية إلا بتحويلها إلى ملكية دستورية. يتمتع فيها بحقوق متساوية المسلمون وغير المسلمين والاتراك وغير الاتراك. وعبر عن هذا «الشباب العثماني» في باريس ولندن ومن قاموا بانقلاب ١٨٧٥ بقيادة مدحت باشا. والى جانب حركة حزب الاتحاد والترقي (١٨٨٩ – ١٨٩٦). والذي تأسس على يد طلاب المدارس الحربية. أمكن الشباب العثماني المناهض للحكم الاستبدادي أن ينظم في باريس مؤتمرين عامي (١٩٠٢ . ١٩٠٧) باسم العثمانيين الأحرار كمظهر من مظاهر المقاومة ضد السلطان الاوتقراطي. وكان يساهم في هذه المؤتمرات بالخارج بعض الشباب العربي وبالذات من المسيحيين السوريين[1].

وكان وقع الاستبداد العثماني على المواطنين العرب أكثر إيلاماً. فقد قامت العلاقة بين العرب والاتراك بصفة عامة على عزلة من جانب العنصر التركي عن العنصر العثماني. واهتم الاتراك بجلب الثروات دون اندماج فعلي في المجتمعات العربية. ومن الصحيح ان الحكم العثماني سمح لبعض العرب بالاشتراك في مؤسساته كالجيش والقضاء والافتاء. إلا أنه بنهاية القرن التاسع عشر تذمر كبار الاعيان والتجار العرب من السياسة العثمانية خاصة مع رغبة السلطان عبد الحميد في ستينات ذلك القرن في تطبيق سياسة المركزية أو تشديد قبضة السلطنة على الأوضاع الاقتصادية في المجتمعات العربية[2]. كما تعرض العرب المسيحيون بالذات في لبنان لمظاهر اضطهاد مختلفة حملت الكثيرين منهم على ترك ديارهم وممتلكاتهم.

ومن خلال المدارس الاجنبية التي غزت الشرق آنذاك تخرج عدد كبير من أبناء المسلمين السنة والمسيحيين. وكان قسم كبير منهم من أبناء البورجوازية التجارية ومن ابناء الأرستقراطية الدينية (أبناء المشايخ) ومن أبناء موظفي الدولة المتوسطين. وشعرت هذه الفئات الجديدة. خاصة الذين أداروا مراكز عالية في الدولة. أن الاتراك يقفون حائلا في طريقهم لانهم كانوا عربا. وتعاطفت معها البورجوازية التجارية السورية التي شعرت نفس شعورهم. لأن النظام الاقطاعي العثماني كان يشكل عائقا في سبيل نموها وازدهارها [3].

والتقت أهداف القوى المعارضة للسلطنة العثمانية سواء العربية او من الشباب العثماني. حتى انه كانت هناك صلة بين من بدأوا يباشرون العمل الصحفي في بيروت ورجال الدولة المصلحين في اسطنبول. حيث عبرت الصحافة اللبنانية آنذاك عن أفكار مشابهة لانصار تركيا الفتاة. مثل منشورات مجلة «الجنان» التي أسسها بطرس البستاني عام ١٨٦٠[4].

وبدأ الشباب العربي المتمرد على حكم السلطنة يستشعر هويته العربية ويبعثها رويدا رويدا في قالب سياسي. فأخذ في تكوين الجمعيات والمنتديات التي كانت في أساسها ذات نشاط أدبي وثقافي. ولكنها مثلت في ذاتها اللبنات الأولى للحركة العربية. وكانت بيروت مسرح أولى الجمعيات التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر. وهي الجمعية

العلمية السورية لحقتها جمعيات أخرى في بيروت أيضا ودمشق. مثل جمعية بيروت السرية ١٨٨٠ التي اتخذت لنفسها نهجا سياسيا. وقامت الجمعية الوطنية العربية بباريس ١٨٩٥. وجمعية الشورى بمصر ١٨٨٨. وجمعية النهضة العربية ١٩٠٦ (٥).

ولكن الموقف من الحكم العثماني والسلطنة في مصر اختلف عما سبق الاشارة إليه في المشرق العربي أو الشام. ويرجع ذلك إلى أسباب مختلفة. منها: وطأة ذلك الحكم واستبداديته واستغلاله. فبرغم وجوده بهذه المظاهر في مصر إلا أنه كان أخف حدة بالنسبة لما وقع على أهل الشام. كما أن اللغة العربية في مصر والدين الاسلامي كانا من القوة بفضل احتضان القوى المحلية لها وأضافا إلى إحساس المصريين نوعا من الثقة والقوة أمام السلطنة، بل انهم شعروا مدى حاجتها إليهم. وفوق هذا وذاك فان الاستعمار الفرنسي والانجليزي وتعاقبهما على أرض مصر جعل المصريين يطلبون مساندة ودعم السلطنة العثمانية في مواجهة هذه القوى الاستعمارية. خاصة وأن الكثيرين منهم ربطوا بين الأوروبيين بكونهم غير مسلمين وبين ضرورة الاستعانة بالسلطنة التي هي خلافة المسلمين في مواجهة هؤلاء الغزاة.

كان العدو الرئيسي للشعب المصري آنذاك هو الاستعمار الفرنسي ثم الانجليزي ولم يكن تركيا. ومن ثم كان رد فعل النخبة المثقفة المصرية للتيار المناهض لحكم السلطنة مختلطا بنواحي النقد لسياسة عبد الحميد الاستبدادية. وبنواحي الدفاع عن بقاء الخلافة والسلطنة أو بمطلب إصلاح السلطنة حتى يمكنها التصدي لمشاكل المسلمين الجديدة، وكان ردّ فعل النخبة المثقفة المصرية إزاء إمكانية استقلال مصر عن السلطنة سلبيا وفاتراً للأسباب التي سبق ذكرها في بيان العلاقة بين تركيا ومصر، ولسبب آخر أهم وهو أن مصر طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٤٠ حصلت على بعض الحقوق الهامة فيما يتعلق بسيادتها وشخصيتها الدولية وأعطاها ذلك نوعاً من الاستقلالية في علاقتها بالباب العالي (٦).

ومن الصحيح أنه يمكن أن نجد إشارات قاطعة على اهتمام النخبة المثقفة بقضايا الفكر القومي على المستوى البسيط الذي طرحت به في نهاية القرن التاسع عشر، ولكن يجب أن نأخذ ذلك في سياق سيطرة المفهوم الاسلامي التقليدي أو التجديدي من ناحية، وفي ضوء أولويات الاهتمام الثقافية والسياسية بالنسبة للمصريين في تلك الفترة. ناهيك أن كبار الأعيان أو كبار الملاّك في مصر ظلوا حتى بداية القرن العشرين من الشركس أو الأتراك الذين احتكروا ملكية الأرض الزراعية، ولم يكن من بين الشيوخ ورجال الدين من هو في وضع مثيل للذي كان بالمشرق، فمعظمهم كان من صغار الملاّك ومن عملوا في ديوان الحكومة، وحتى فئة البورجوازية الوليدة التي نمت قبل حركة التحديث التي قادها محمد علي قد اندثرت في سنوات عمرها الاولى. بصفة عامة لم يكن حتى ذلك الوقت الوضع الطبقي مهيَّئاً لبروز قوة بعينها تستطيع إسقاط العنصر التركي وتحول تيار القومية الذي دخل إلى المنطقة مع الاتصال بالحضارة الاوروبية إلى تيار سياسي وفكري مؤثر.

من أمثلة الخلط الذي وقع فيه البعض في مصر كان في فكرة العروبة والاسلام. فالنديم يذكر في مجلته «التنكيت والتبكيت» في ٨١/١٠/٢٣ «نحن ابناء مصر لا نفرق بين تركي وعربي وجركسي. فكلنا أهل البلاد. فاننا لو ارسلنا

التركي إلى بلاده الآن ما اهتدى لموضع بيت أبيه في بلده . ولو أرسلنا الجركسي ما عرف طريق الوصول لمحل مولده . واذا نظرنا اليهما بالنسبة إلى مصر وجدناهما صاحبي اطيان وعقارات .. فهما الان منا . حقوقنا حقوقهم . خصوصا وكلمة الدين تجمعنا من قبل .. فكلنا ناظر لغاية واحدة هي عمار البلاد وحفظها من العدو وكف يد الظلم عنا وعنها ولا نصل لهذه الغاية الا بالاتحاد [٧] » . والاتحاد في نظره كان ينصرف إلى الرابطة الشرقية أو وحدة الشرق كما كان يذكر. فالغريب انه وردت كلمة «الوحدة العربية» في رسالة بعث بها أحد قراء مجلة «الاستاذ» إلى عبد الله النديم عام ١٨٩٣ تقول : «بعد الاطلاع على مضمون العدد (٣٥) من مجلتكم تحققت أنكم لا تزالون على خطتكم الوطنية العربية التي بها وبنشرها بين كل ناطق بالضاد بقطع النظر عن اختلاف الاديان والاخلاف تتقدم الوحدة العربية وتقف امام صدمات الاعداء من جميع الاوجه ..» ولكن النديم رد عليه قائلا : «.. وهذا يرد على من ينسبون «الاستاذ» إلى التعصب الديني أو إلى تفريق الكلمة الشرقية... ولو قال هذا الفاضل (أي صاحب الرسالة) اننا نادي بحفظ الوحدة الشرقية من عرب وعجم واتراك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم على اختلاف الدين لأصاب الغرض فاننا ننادي بها لا بالجامعة العربية وحدها» [٨] .

وفي الوقت الذي كانت الدعوة في الشام والحجاز تتجه إلى تبني فكرة الخلافة العربية باعتبارها شكلا سياسيا هاما يجعل فكرة العروبة — والقومية العربية — في موضع التطبيق ، فان الاتجاه العام في مصر كان نحو اصلاح السلطنة العثمانية والتحفظ في شأن قيام خلافة عربية مع بعض الاستثناءات التي سنشير إليها .

كان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ — ١٩٠٣) هو خير من عبر عن دعوة القومية العربية في شكلها الذي اتخذته بنهاية القرن التاسع عشر ، حيث دعا إلى نقل الخلافة من الاتراك إلى العرب لانهم أحق بذلك ، وبنى فكره استنادا إلى تميز العنصر العربي عن التركي وإلى الطبيعة الاستبدادية التي قام عليها الحكم العثماني عموما .

والكواكبي هو أحد أبناء العائلات الراسخة في العلم من الولايات العربية التي كانت تناوئ السلطان العثماني . نشأ في كنف عائلة حلبية من أصل كردي . وتلقى تربية عربية وتركية من الطراز القديم في مسقط رأسه . ثم عمل هناك موظفا وصحافيا إلى أن جلبت عليه أفكاره وتحركاته نقمة السلطات التركية فرحل إلى القاهرة في ١٨٩٨ . وبدأ يكتب في مجلة « المنار » ، وتردد على مجالس الإمام محمد عبده ، ثم سافر إلى الجزيرة العربية وشرق افريقيا ووضع كتابيه « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » [٩] .

والحقيقة ان اجتهادات الكواكبي انتهت من الوجهة العلمية إلى تأكيد فكرة اللامركزية . أو أن تحظى الولايات العربية باستقلال ما داخل إطار السلطنة العثمانية . فالتخلص من السلطنة العثمانية كان صعبا آنذاك لاسباب كثيرة : بعضها — كما سبق القول — يرجع إلى التخوف من الوقوع في براثن الاستعمار الأوروبي . والآخر إلى حداثة الفكرة القومية .

في ١٨٨١/١٠/٢٣ يعلق النديم في مجلته « التنكيت والتبكيت » على قول بعض الاوروبيين أن الدولة العلية لن تستطيع الاستمرار بسبب حالات الثورة الداخلية عليها مستشهدين بحركة مدحت باشا ، قائلاً : « نحن معاشر العرب

بايعنا ملوكنا مبايعة شرعية نعدّ رفضها كفراناً وإخلالها خسرانا ، ولنا ذمة يحلف بها الصديق ... إن الحديث عن دولة عربية إنما هو خدعة وتغرير لتفريق كلمة الأمة وإلقاء الفتن بيننا ولكن احرص على حفظ وحدة الاجتماع منها على إفساد بواطننا »(١٠) .

ومن قبل في ١٦/١٠/١٨٨١ قال : «ان الدولة العلية ترى مصر قلب الدولة فكذلك نحن نرى الدولة محل سطوتنا ومركز آمالنا ودار الخلافة الاسلامية . ، واننا نرجو أن تجتمع كلمة المسلمين في سائر الاقطار وتتحد قلوب المؤمنين لنكون يدا واحدة في وقاية دولتنا من سائر النوازل» (١١) .

وعندما نشرت بعض الصحف الأوروبية أخبارا عن وجود حركة سياسية سرية بقيادة الخديوي عباس حلمي الثاني تستهدف تكوين دولة عربية أو خلافة عربية تنفصل عن الخلافة العثمانية . وتضم كلاً من مصر والشام وولاية الحجاز . نفى ذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة «المؤيد» والذي كان صديقا للخديوي وقال : «ان القول بان هناك من يسعى لحدوث انقلاب عظيم في شكل الحكومات الحاضرة . شيء لم يخطر على بال أحد غير مكاتب الجرائد الأوروبية .. ان المصريين شعارهم الطاعة المطلقة لاميرهم الأفخم وكيل جلالة السلطان المعظم الشرعي ونائب خليفة رسول الله أمير المؤمنين ولا تؤثر عليهم شراك ودسائس المضللين (١٢) » . ولكن عندما ساءت علاقة الخديو بالباب العالي وتحسنت علاقاته بالمعتمد البريطاني الجديد (جورست) بعد كرومر . أصبح اسم عباس حلمي الثاني مرشحا كعاهل للدولة العربية الجديدة الموحدة إلى جانب شريف مكة الحسين بن علي كخليفة . وهنا غيَّر الشيخ علي يوسف رأيه فكتب يقول : «القطر المصري قبلة الشعوب العربية وروح نهضتها المنتظرة .. ان رغبة المصريين في حفظ استقلالهم واحياء لغتهم ليس فيه مصلحة لهم وحدهم . بل هو ايضا من مصلحة جميع إخوانهم المتكلمين بلغتهم » . وعندما سمح الباب العالي بإدخال «المؤيد» تراجع الشيخ علي يوسف مرة أخرى وإن كان قد عمد إلى استكتاب من راول نقد سياسة الباب العالي (١٣)

وارتأت النخبة المثقفة أن تتبع طريقا مستقلا في التعبير عن موقفها من فكرة القومية العربية . فالى جانب استقبالها للمسيحيين الشاميين الذين فروا من اضطهاد السلطات العثمانية والذين أبدوا اتجاهات قوية نحو العروبة . أمثال بطرس وسليم البستاني وابراهيم اليازجي . فقد أبدوا من جانبهم اهتماما كبيرا بتطوير اللغة العربية واحلالها محل اللغة التركية . وجهود محمد عبده في «الوقائع المصرية» معروفة . وشددوا من الانفتاح على الحضارة الغربية وذلك لاكتساب قيم الحياة الليبرالية التي توافقت على وجه العموم مع ميل الشعوب العربية إلى التعبير عن شخصيتها وهويتها . كما انصرف قطاع كبير منهم إلى تبني أفكار تجديد الاسلام بالعودة إلى السلف الصالح والذي كان يعني العودة بالاسلام إلى أصوله العربية . تلك التي تواجدت في العصر الذهبي للاسلام (حتى القرن الرابع الهجري) .

وباشتداد قبضة الاحتلال الانجليزي بعد ان كشف عن نيته سافرا بالبقاء في مصر . أصبحت قضية الاستقلال والتحرر الوطني هي القضية الأم التي تشغل بال المثقفين والسياسيين المصريين . كما توافق ذلك مع ازدياد المد العلماني في الثقافة المصرية وما ارتبط به من شدة الصلة باوروبا . وفي هذا البعد اجتهد كثير من الكتاب العرب في القول بانه كان

أحد الأسباب الرئيسية في نمو الشخصية المصرية والاتجاه إلى العزلة عن العالم العربي . وعادوا إلى بداية الحملة الفرنسية ليؤكدوا أن قدوم الحملة كان أول خيوط التآمر الخارجي لعزل مصر عن العالم العربي . وبنوا على ذلك أن القوى التي طالبت بالأخذ عن أوروبا . والتي قالت ان مصر جزء منها وليس من عالمها العربي

إنما ساروا في فلك هذا المخطط [١٤] وتداخلت عوامل أخرى لتدفع بمصر بعيدا عن القضايا العربية دون أن تقطع حبل الصلة بها . والحقيقة أن تأخر الارتباط المصري بالقضية العربية منذ أوائل القرن العشرين وحتى الحرب العالمية الأولى أثّـر سلبياً على حركة القومية العربية ككل ، لأن مصر تأخرت عن مرحلة الزخم القومي ، في الوقت الذي كانت فيه الفرصة مؤاتية وهامة وحاسمة بأن تتواجد مصر بكل ثقلها مع الأقطار العربية الاخرى في قلب المشكلة القومية آنذاك .

لقد اتجهت الحركة القومية العربية في أوائل القرن العشرين إلى التعبير عن نفسها بشكل أكثر حدّة وصراحة ، ونفضت ما أُلصق بها من ظلال التمييز العنصري والطبيعة الدينية وتقدمت كحركة علمانية وسياسية تقوم على أن للعرب تاريخاً وقضايا مشتركة . فتشكّلت جمعيات وأحزاب سرية وعلنية ، هي : « الاخاء العربي » ١٩٠٨ ، و« المنتدى الادبي » عام ١٩٠٩ ، و« العربية الفتاة » عام ١٩٠٩ ، و« الجمعية القحطانية » عام ١٩١٠ ، و« جمعية العهد » وكلها في الاستانة ذاتها . و« حزب اللامركزية » في مصر ، و« الجمعية الاصلاحية » ببيروت ، وذلك في عام ١٩١٢ . وطالبت كلها بمزيد من الاستقلال للعرب . ولكن لم يطالب أي منها مطالبة محددة وصريحة بالاستقلال التام ، لذلك كان المحور العام لمخططها السياسي هو نوع من اللامركزية السياسية ، أما المحور العام لمخططها القومي فكان الاعتراف بأمة عربية واحدة ، ذات كيان قومي مستقل عن الاسلام ولكنه ليس منفصلا عنه سياسياً تمام الانفصال [١٥]

وكان مؤتمر باريس عام ١٩١٣ أفضل مظهر عبر التطور الجديد في مسار الحركة القومية ، وقد رأسه عبد الحميد الزهراوي من سوريا ، واشترك في اعداده اعضاء جمعية «العربية الفتاة» في باريس و«حزب اللامركزية» في القاهرة ، وحضره نحو مائتين من العرب . وقبيل انعقاد المؤتمر أعلن رئيسه الزهراوي «ان المؤتمر ليس له صفة دينية وكل أعماله تنحصر في الدائرة المحددة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية . . » وقال : «اننا لا نريد حكومة عثمانية ، لا تركية ولا عربية ، حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين ، عربيا كان أو تركيا ، أرمنيا أو كرديا ، مسلما أو مسيحيا ، إسرائيليا أو درزيا» [١٦] .

وأكد أعضاء المؤتمر على ثلاثة أمور : أولها أن العرب كلهم (دون ابراز حدود الكلمة) أمة مستقلة واحدة ذات ماضٍ خالد ومستقبل مرجو الخير (وقد فسر هذا الواقع تفسيرات موضوعية وعاطفية في آن واحد) ، وثانيهما أن حل المشكلة التي تجابه الامة العربية هو نظام اللامركزية لا الاستقلال التام ، وثالثها التأكيد على وحدة الامة أو وحدة المجتمع بمختلف عناصره [١٧] .

وكان من بين المفكرين العرب البارزين في تلك الفترة نجيب عازوري وهو مسيحي كاثوليكي سوري تربى تربية فرنسية ، وكان لفترة موظفا عثمانيا في القدس ثم تخلى عن منصبه وذهب إلى باريس حيث أسس رابطة الوطن العربي عام

١٩٠٤، وأصدر كتابه «يقظة الأمة العربية» عام ١٩٠٥، والذي طرح فيه عدة أفكار هامة تتعلق بالقضية القومية، فقال ان هناك أمة عربية واحدة تضم مسيحيين ومسلمين على السواء، والمشاكل الدينية ما هي الا مشاكل سياسية اصطناعية لقوى خارجية لها مصلحة فيها، وان المسيحيين لا يقلون عروبة عن المسلمين، ومن الضروري أن تقوم كنيسة مسيحية عربية صرفة، ونبه إلى الخطر اليهودي في فلسطين، والخطوط الكبرى للدولة العربية المستقلة أن تكون سلطة دستورية ليبرالية برأسها مسلم عربي على أن تخدم استقلال لبنان ونجد واليمن [١٨].

ولكن يؤخذ عليه أنه كان يسعى إلى مساعدة قوة اجنبية للعرب هي فرنسا للحصول على استقلالهم عن الاتراك، كما انه لم يدخل مصر وشمال افريقيا في حدود الامة العربية التي أشار اليها.

ولم يكن عازوري فقط الذي لم ير لمصر دوراً هاماً في القضية العربية، بل ان المجتمعين في مؤتمر باريس أنفسهم لم يهتموا بذلك.. فقد كان من بين الطلاب الذين حضروا المؤتمر طالب مصري يدرس القانون في باريس هو الدكتور سيد كامل الذي لعب دورا هاما في ثورة ١٩١٩، وكان من الذين لعبوا ايضا دورا هاما في إنشاء بنك مصر. سأل الطالب المصري رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي إذا كان يحق للمصري ان يشترك في المناقشات واصدار القرارات، فاجابه: «نحن نحترم إخواننا المصريين ونحترم آراءهم.. ونحن نعرف أن مصر بلاد عربية عثمانية، ولكن بما أن لها إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأي العثمانيين لذلك أرجو أن يكون هذا عذراً لبقاء مناقشة الشؤون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لآرائهم حق التأثير على أحوالهم» [١٩].

انفتح الباب على مصراعيه لتيار الشخصية المصرية والاتجاه اللاعروبي مع العقدين الاولين من القرن العشرين لأسباب منها الرغبة في تحقيق الاستقلال الوطني، والتصدي للاتجاه الاسلامي التقليدي الذي دافع عن امبراطورية مريضة تهالكت وسقطت في عام ١٩٢٤ وبسبب الشك في نوايا الجامعة الاسلامية خاصة وان اثار حركة رجال الاتحاد والترقي التي قامت عام ١٩٠٨ كانت بالغة السوء على الحياة العربية والحقوق السياسية للعرب. كما أصيب انصار الاتجاه القومي العربي بخيبة أمل من السلطنة بعد انتهاء مؤتمر باريس حيث لم تنفذ أي وعد من وعودها، ناهيك عن فشل الثورة العربية التي قادها الشريف حسين ١٩١٦، والتي قوبلت في مصر بعين الشك والارتياب لانها كانت ضد تركيا التي تحظى بوضع هام في السياسة المصرية.

٢- المصرية والاتجاه اللاعروبي:

تأثرا بالغرب ظهر فريق كبير من المثقفين المصريين أعجبوا بالغرب وأوروبا واقتنعوا بليبراليتها ونظمها الديمقراطية وروحها الانسانية وتساوي الناس فيها، وآمنوا بضرورة اتخاذ المجتمع الأوروبي مثلا يتحذى. ورأى البعض ضرورة ربط مصر باوروبا بدرجات مختلفة مثل قاسم أمين وأحمد لطفي السيد وطه حسين في ثلاثينات القرن العشرين. وساعد على نشر هذه الآراء ضعف العامل الديني واهتزاز سلطة رجال الدين بتأثير فكر الامام محمد عبده وتزايد أهمية الفكر المستند إلى العقل وقواعد الطبيعة.

بدأ تلاميذ عبده والمسيحيون الشوام الذين تلقوا تعليماً أمريكياً أو فرنسياً ينادون باعتناق المفهوم الأوروبي العلماني

الخاص بالدولة القومية ، وإحلالهم إياه محل الفكرة الدينية الخاصة بالجماعة أو الأمة في الإسلام . أي وجود الجماعة القومية تحكم نفسها بنفسها على ضوء مصالحها ، وفصل الدين عن السياسة ، ونظام الحكم الديمقراطي ، بمعنى سيادة الإدارة العامة التي تجد التعبير الحر عنها في البرلمانات وقوة الفضائل السياسية والاخلاص للمجموع والاستعداد لبذل التضحيات في سبيله ، وتنظيم الصناعة الحديثة واقتباس المنهج العلمي الكامن وراءها .

وقد عبر عن الآراء السابقة في أوائل القرن العشرين أحمد فتحي زغلول ، وأحمد لطفي السيد ، وفي خلال العشرينات والثلاثينات عدد من الكتاب البارزين أمثال أحمد أمين وعباس العقاد ، وتوفيق الحكيم وابراهيم المازني وطه حسين .

واعتمدوا على أمرين لتأكيد أفكارهم اولهما تفسير التاريخ بقصد تفضيل ماضي مصر عن ماضي الجماعة الاسلامية الكبرى ، ثم حاولوا تزويد مصر بثقافة خاصة بها ، فعادوا إلى الأساطير القومية وأمجاد الحضارتين الفرعونية والعربية . كل هذا بهدف حصر ولاء الفرد وانتمائه للحدود الاقليمية للدولة المصرية القومية (٢٠) .

من خلال « الجريدة » — صحيفة حزب الأمة — والتي كان برأس تحريرها أحمد لطفي السيد ، طرحت الفكرة « المصرية » الصميمة بأن مجهودات مصر لا بدّ أن تكون من أجل مصر فقط ، ورفضت فكرة الجامعة الاسلامية والجامعة العثمانية . وكتب لطفي السيد يقول : « نحن فراعنة مصر ونحن عرب مصر ونحن مماليك مصر وأتراكها ، ونحن المصريين ، ونحن المصريين كل هذه الشخصيات القومية المادية والمعنوية والوراثية والكسبية ، من شأنها أن تجعل بيننا رابطة الجنسية أقوى منها في أكثر الأمم »(٢١)

وحاول محمد حسين هيكل ابراز شخصية مصر من خلال قدرتها عبر التاريخ على صهر مختلف الأقوام ، وتمصيرهم وادماجهم في الشعب المتكون من عناصر متعددة هضمتها مصر فلم تعد تفرق بينها وبين سائر بنيها ويقول : «ان غريزة القومية كانت قوية في مصر بسبب عزلة مصر عما جاورها ، يفصل بينها وبين كل جار من البحار أو الصحارى ما لا يسهل اجتيازه »(٢٢). وعلى هذا الاساس يعلل انتفاض مصر على السلطة العربية المركزية أيام الخلفاء الراشدين وبني أمية وبني العباس ، ثم نيلها استقلالها استقلالاً ناجزا صحيحا منذ أيام الطولونيين ، ثم تسنمها المكانة الأولى بين الأمم الاسلامية واسهامها في تراث العرب العلمي والأدبي .

وكان إلى جانب الاتجاه نحو المصرية اتجاه آخر عرف بالفرعونية تبناه متعصون للتاريخ الفرعوني أمثال سلامة موسى ومرقص سميكة ، وحسن صبحي ، ومحمد عبد الله عنان . لقد نادى سلامة موسى بالاهتمام بالعامية المصرية: «نحن اسرة قد عشنا في هذا الوادي اكثر من عشرة آلاف سنة ليس فينا مصري واحد كائنة ما كانت البقعة التي يعيش فيها إلا وفيه قطرة من الدم الذي جرى في رمسيس وخوفو ومنقرع واخناتون». وحسن صبحي يذكر أن لمصر ثقافتها الخاصة الخالدة وان العرب اندمجوا في الثقافة المصرية ولم تتغلب ثقافتهم عليها ، وأنه من الممكن تمييز الثقافة المصرية في البيت المصري والأغاني الشعبية التي يرددها الفلاحون ، بل في اللغة العربية التي يتكلّم بها المصريون ، ثم

يقول أن الارغول والناي والعود والدف، كلها أدوات مصرية فرعونية صميمة. ويذكر محمد عبد الله عنان في مجلة « السياسة الاسبوعية » أنه من المستحيل أن تنضم مصر إلى البلاد العربية إذا تعلق الأمر بالناحية القومية، فالقومية المصرية قديمة وأصيلة، وقد وجدت الأمة المصرية منذ أقدم عصور التاريخ واقترن اسمها بحضارة من أقدم الحضارات » (٢٣).

وكان هناك اتجاه ثالث بحر أوسطي رأى أن مصر أشد ارتباطا بحوض البحر الابيض المتوسط وحضارته وليس بالرابطة الشرقية. وفي كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ذكر طه حسين أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل ان تأثر بشيء فانما يتأثر بالبحر المتوسط، وأن أسرة العقل المصري هي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم.

وعموما اختلطت أفكار أنصار الفرعونية مع انصار المصرية ومثلت أسساً قوية لاتجاه لا عروبي انطلقت منه ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول الذي دفع الوطنية المصرية دفعة عالية، فصار المصريون يعرفون ان وطنهم مصر وحدها، واعتبر السيادة التركية زائلة، والحماية البريطانية باطلة. ولم يحس سعد زغلول بوجود قضية عربية، وكل ما شغله هو استقلال مصر ووحدة وادي النيل، ولم يصدر في كلامه عن العرب والعروبة أي شيء سوى نداء إلى سورية في أزمتها ١٩٢٥. بل العكس هاجم سعد فكرة العروبة وقال عن البلاد العربية انها مجموعة أصفار.

وكان لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في عام ١٩٢٢ أثر قوي في تدعيم أفكار هؤلاء حول المصرية أو الفرعونية فقد أثار الاحاسيس حول بعث مصر ومجدها القديم، خاصة وانه قد جاء بعد ثورة ١٩١٩ بثلاثة أعوام، فضخم في الاذهان ثقة هذا الشعب في ماضيه وشخصيته المستقلة (٢٤). وأوحى لبعض أصحاب الاتجاه اللاعروبي ببعض الاعمال الفنية والادبية فكتب الحكيم «عودة الروح»، «وأهل الكهف»، وأقام محمود مختار تمثال نهضة مصر.

٣- نمو وتصاعد الفكرة العربية في مصر:

رغم قوة تيار المصرية في فترة العشرينات إلا أن ذلك اختلف إلى حد كبير مع حلول الربع الثاني من القرن العشرين وبالذات مع بداية الثلاثينات. وقد بدأ الارتباط المصري بالقضية العربية حثيثا وبطيئاً، واختلط بعامل الرابطة الشرقية والدينية، واقتصر على التضامن المعنوي مع نضال الشعوب العربية في سورية وفلسطين والريف وبرقة. ورأى بعض المصريين في أواخر العشرينات احتمال اتحاد كل البلدان الشرقية من اليابان إلى المحيط الاطلنطي، وهو الاتجاه الذي عبرت عنه مجلة « الرابطة الشرقية » التي أنشأها أحمد زكي الذي عُرف بشيخ العروبة وساندته معظم الجمعيات الدينية. ورغم أن عدداً كبيراً من المصريين أبدوا حماسة لأن تلعب بلادهم دوراً شرقياً إسلامياً. إلاّ أن هذا الاتجاه ظلّ غامضاً ومختلطاً لفترة طويلة حتى انه بالتدريج اتجاه آخر هدف إلى إقامة اتحاد يضمّ المسلمين العرب وحدهم على أن تتزعّمه مصر. ولاحت الفكرة لبعض خديويي مصر بإقامة خلافة عربية يكونون على رأسها.

إلى جانب جمعية « الرابطة الشرقية ». كانت هناك جمعية « الشباب المسلمين » التي تأسست عام ١٩٢٧. وقد دافعت عن القضايا العربية بدافع إسلامي. في عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ قررت الدفاع عن حق العرب في حائط

المبكى ، ومقاومة سياسة فرنسا في محو عروبة مراكش ، وعندما قامت الحرب بين اليمن والسعودية عقدت مؤتمرا بالقاهرة نادى بوقف القتال بينهما .وكانت هناك أيضاً « الرابطة العربية » التي هدفت إلى توحيد البلدان العربية وجمع شملها تحت راية مصر التي تتمتع بمركز خاص ، وركزت نشاطها على سبل التعاون الثقافي والاجتماعي وليس السياسي بين البلاد العربية . وأسست جماعة « الوحدة العربية » عام ١٩٣٨ وكان اعضاؤها من طلاّب الجامعة المصرية وخريجيها ، وبثّت قضية تحقيق الوحدة العربية والتعاون العربي على مستوى شعبي وغير رسمي . وظهرت جماعة « الاتحاد العربي » وركزت ايضاً على تحقيق اتحاد شعبي بين الأقطار العربية ، وتميزت بأنها كانت تطرح مفهوماً قومياً خالصًا بعيداً عن العوامل الدينية والعرقية والمذهبية . وكانت هناك جمعية أدبية اسمها « جماعة أُدباء العروبة » ، ألّفها فريق من رجال الأدب والفكر في العالم العربي في القاهرة وهدفت الى توثيق الصلات الثقافية بين أبناء العروبة في سائر أقطارها واستقلال الفكر العربي بخصائصه ومميزاته(٢٥)

وكان وراء تزايد الصلات المصرية بالبلاد العربية والدعوة بقوة إلى العروبة والفكرة القومية العربية عدد من العوامل الاساسية والثانوية . في مقدمة العوامل الاساسية يأتي شعور مصر باستقلالها وان كان مشروطاً ، وبعد أن تأكد لزعمائها امكانية استغلال الموقف الحرج الذي كانت فيه بريطانيا مع بداية الحرب العالمية الثانية ، وكانت مصر بعد ١٩٣٦ قد بدأت تشعر بقدر نسبي من الحرية في الحركة الخارجية بعيدا عن النفوذ البريطاني . ومن هذه العوامل أيضا أن بلاد المشرق العربية كانت قد بدأت تحصل هي الأخرى على قدرٍ واسع من استقلالها مع نمو وتزايد المد القومي فيها لأسباب أخرى . وكانت القضية الفلسطينية قد أثارت مواقف العرب جميعا وجمعت قلوبهم واخذت توحد قواهم من جديد . يضاف إلى ذلك أن نمو الرأسمالية المصرية الصناعية والتجارية وانشاء طلعت حرب لبنك مصر أدى إلى انفتاح العقل المصري من جديد على السوق العربية ، ورغم محدودية دور هذه الطبقة والمشاكل التي واجهت البنك ، إلا انها مثلت في مجموعها مؤشراً على التوجه إلى المنطقة العربية . إلى جانب ما سبق كانت هناك عوامل ثانوية أسهمت في دفع مصر إلى إدراك عروبتها مثل تحسن المواصلات البرية والبحرية والجوية ، وتعدد الزيارات المشتركة في كثرة الزائرين العرب لمصر ، وخروج المصريين لزيارة سورية وفلسطين ولبنان والعراق منها الزيارات التي قام بها كل من منصور فهمي ومحمّد حسين هيكل ومحمود عزمي والمازني ومكرم عبيد وأحمد حسن الزيات وزكي مبارك وعبد الرزاق السنهوري وعبد الرحمن عزام وغيرهم . وحدثت حركة تبادل تعليمية وثقافية كبيرة بين مصر والبلاد العربية ، وضحت في الرحلات التي قام بها الطلبة من البلاد العربية وإقامة المؤتمرات الدورية المهنية العربية . وساهم المجمع اللغوي العربي لذي تأسس عام ١٩٣٢ في تنشيط الحركة العلمية في اللغة العربية(٢٦) .

لقد تغيرت خريطة النخبة المثقفة ازاء القضية العربية تغيرا ملحوظا في فترة الثلاثينات والأربعينات انعكاسا للمظاهر والعوامل السالف الاشارة اليها ، فالبعض نادى صراحة بعروبة مصر ولكنه تحفظ بشأن إعلان الوحدة السياسية بشكل عاجل ، والآخر قصر اهتمامه على المضمون الوظيفي للوحدة العربية فدعا للتعاون في المجالات الثقافية بالدرجة الاولى ، وهذا الفريق بالذات تطور عن الذين ينادون بالمصرية أمثال طه حسين هيكل وغيرهم حيث أخذ هؤلاء يغيرون

مواقفهم السابقة وبدوا وكأنهم من فريق العروبة عموما. وفريق ثالث دافع عن العروبة ولكن من خلال منطلق اسلامي. وعكس هؤلاء جميعاً على اختلاف مشاربهم انتماءاتهم العربية في الصحافة ومناقشات البرلمان المصري في الثلاثينات والأربعينات.

من انصار التعاون الثقافي والاقتصادي (النظرة الوظيفية للوحدة) كان طه حسين وهيكل وطلعت حرب حيث أيدوا الوحدة العربية على أساس الاستقلال الوطني. كما عبر عن نفس الفكرة والاتجاه محمود عزمي في مجلة «الهلال» نوفمبر. تشرين الثاني، ١٩٣٨، والدكتور بهي الدين بركات، واحمد لطفي السيد، وخليل مطران في نفس المجلة عدد ديسمبر، كانون الأول، ١٩٣٨.

لقد دافع طه حسين عن هذا التيار في مجلة «الهلال» في عددها الذي خصصته للوحدة العربية في ابريل، نيسان، عام ١٩٣٩. فميز بين ما أسماه بالعقل العربي القديم والعقل العربي الجديد، وقال: «ان ما من احد يختلف في أن الوحدة العربية والوحدة الاسلامية نافعة للشعوب العربية وللشعوب الاسلامية، ولكن المشكلة أن الكثيرين ينظرون للوحدة كما فهمها القدماء في ظل سلطان عام شامل يبسط عليها جناحيه ويحوطها بقوته وبأسه. وأما أصحاب العقل الحديث (وهنا يقصد نفسه) فانهم يفهمون الوحدة على نحو ما تفهم عليه في البلاد المتحضرة بالحضارات الحديثة الأوروبية، يفهمونها على أنها لا تنفع ولا تفيد إلا إذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لأعضائها والسيادة العامة لهم في حياتهم الداخلية والخارجية، وقامت على الحلف الذي لا يفني أمة في أمة ولا يخضع شعبا لشعب، وإنما يمكن الأمم من أن تتعاون على اساس ما يكون بين الأنداد من المساواة» (٢٧). وقدم طه حسين نفسه مدافعا عن العروبة من حيث ما قدمه للثقافة العربية من جهد وتطوير وطالب بالوحدة والتعاون الثقافي بين العرب.

نفس الفكرة طالب بها محمد حسين هيكل، في نفس العدد يقول أنه تقابل مع المدافعين عن قيام الوحدة العربية أثناء رحلاته الخارجية، ولكنه اكد لهم أن توحيد الثقافة هو الأساس الأول والركن المتين الذي يعتمد عليه في ايجاد الرابطة التي ينشدونها (٢٨).

ومحمد علي علوبة الذي كان مهتما بالمؤتمرات العلمية بين العرب قال إن مصر عربية، ولكنه أيد التعاون الثقافي والاقتصادي والاجتماعي دون الوحدة السياسية التي في رأيه تجد معارضة بالداخل والخارج «اني لا أنظر إلى الوحدة العربية نظرة سياسية تدعو إلى توحيد ممالك عربية، إنما الذي يهمنا بنوع خاص هو تلك الوحدة الثقافية والروحية والعلمية، وحدة الاخاء ووحدة الرابطة العربية التي تقرب بين أذواقنا ولهجاتنا وتجعلنا لا نعبأ بتلك الفوارق الجغرافية، ولا بالحدود الارضية بعد أن اتحدت نفوسنا» (٢٩).

وطرح محمد طلعت حرب مفهوما اقتصاديا للتعاون العربي «تستطيع الامم العربية أن تستثمر خيراتها بحكمة وتدبير، وان يتبادل بعضها ما عند بعضها الآخر ما ليس عنده، فتدر المنافع على الجميع، ويعم الخير على الجميع وتزداد ثرواتها الاهلية وقواها الحيوية، وتستكمل ما قد ينقصها من أسباب الحياة العزيزة، على أن ذلك كله لا يتم على الوجه المرغوب الا بالتعاون في الناحية الاقتصادية» (٣٠). واكد على ان مصر لم تقصر في هذا المجال وانها في سياستها الاقتصادية فتحت الباب

لمن يريد أن يتعاون معها على الخير والبر والمعروف، فاعمالها الاقتصادية. أبناؤها وأموالها في خدمة الأمم العربية جمعاء.

وأما الفريق الذي رفع لواء الوحدة العربية الشاملة فكان من انصاره عبد الرحمن عزام الذي شغل منصب أول أمين عام للجامعة العربية عند قيامها عام ١٩٤٥، فكان يعتقد بايمان العرب في انفسهم وأنهم أمة واحدة، ورأى أن الوحدة خير للعالم والعرب خاصة. ومن هذا الفريق زكي مبارك الذي قال أنا عربي اولا ومصري ثانيا، وذكر أن العروبة هي اللغة واللسان لا الجنس أو الدين. ومنه ايضا ابراهيم عبد القادر المازني، الذي قال ان العروبة هي اللغة وهي اللسان. وأحمد حسن الزيات الذي آمن بالعروبة والوحدة العربية كحاضر ومستقبل ولكنه رأى البداية بالتعاون الثقافي والاقتصادي (٣١).

ومكرم عبيد أحد اقطاب حزب الوفد كانت اراؤه قريبة من هذا الاتجاه العروبي الصريح في عروبته. فبعد زيارات مختلفة لسورية ولبنان وفلسطين دعا إلى وحدة عربية شاملة من المحيط الى الخليج ما عدا من الناحية السياسية، على أن تكون لكل بلد قوميته الخاصة. في عدد «الهلال» نيسان (ابريل) ١٩٣٩، كتب يقول: «نحن عرب ويجب أن نذكر في هذا العصر دائما اننا عرب قد وحدت بيننا الآلام والآمال، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان فاحدثت منا امماً متشابهة متماثلة في كل ناحية من نواحي الحياة.. والوحدة العربية حقيقة قائمة هي موجودة ولكنها في حاجة إلى تنظيم، والغرض من التنظيم ايجاد جبهة تناهض الاستعمار وتحفظ القوميات وتوفر الرخاء وتنمي الموارد الاقتصادية فتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة، أو وطنا كبيرا يتفرع منه عدة أوطان لكل منها شخصيتها لكنها في خصائصها القوميه العربية متحدة. متصلة اتصالا قويا بالوطن الاكبر» (٣٢). ورغم انه كان من أنصار الوحدة الشاملة فانه كان يهتم بالبدء بالتعاون الثقافي والاقتصادي.. «.. ان العمل لتوحيد الثقافة وتبادل المتاجر والمنافع وعقد المؤتمرات، وتبادل الآراء، كل ذلك يؤدي إلى توحيد الجهود والتضامن العربي العام القوي الأركان المتين البناء» (٣٣).

وأما الفريق الذي نشد الوحدة العربية الشاملة في اتجاه الرابطة الاسلامية فقد سعى إلى الوحدة العربية على أن يعقبها بعد ذلك وحدة اسلامية، فمثله احمد حسين رئيس حزب «مصر الفتاة». وهو الحزب الوحيد تقريبا الذي أعلن في برنامجه انتماء مصر العربي. لقد دعا أحمد حسين إلى تكون وحدات عربية قوية تليها وحدة عربية تعقبها وحدة اسلامية. وقال بضرورة التعاون في التعليم والسياسة الخارجية والدفاع حتى تتم الوحدة الفكرية والسياسية، وكذلك سرعة الغاء الحواجز الجمركية لتتم الوحدة الاقتصادية (٣٤).

كانت هذه اسهامات النخبة المثقفة المصرية إزاء مسألة القومية العربية، وهي في مجملها يغلب عليها طابع الحذر في المضي في الطريق السياسي للوحدة، وان كان هذا لا يعني مطلقا رفضهم لوجود الفكرة القومية وانما كان الايمان بالعروبة والميل لتبني القومية العربية واضحا، إلا ان الاسلوب اختلف طبقا لظروف وواقع المجتمع المصري.

ولكن هذه الإسهامات نظر اليها في المشرق على أنها لا تتلاءم وموقع مصر ودورها المنشود في القضية العربية، وتركز النقد بالأساس حول أفكار الاتجاه اللاعروبي وضدّ أنصار المصرية.

في فترة العشرينات والثلاثينات، وقد اصيبت الاقطار العربية بخيبة الأمل في تكوين حركة سياسية متحدة فيما بينها

ووقعت في براثن الاستعمار الاجنبي، كان رد فعلها إزاء ذلك أن ظهرت فيها أفكار تمسكت بشدة بتيار القومية العربية وتحصنت داخله، خاصة مع التغير الذي حدث في التكوين الاجتماعي في سورية والعراق حيث نشطت الطبقات التجارية ونمت إلى حد ما طبقة بورجوازية متمردة على النمط الاقطاعي الذي ساد في فترة الحكم التركي. وقد لعب الملك فيصل دورا ملحوظا في بداية العشرينات في تقوية الشعور القومي في سورية ثم في العراق بعد أن وقف الفرنسيون في وجهه في سورية. ولكن محاولاته لاقامة دولة عربية قوية باءت بالفشل بعد أن وقفت القوى الاجنبية فرنسا وبريطانيا في وجهه.

وكان ساطع الحصري (١٨٨٠ - ١٩٦٨)، والذي يعد من رواد القومية العربية، متحمساً لمشروعات فيصل الوحدوية لأنه أي الحصري كان من الرعيل الأول الذي حمل لواء القومية العربية مع بدايات الثورة العربية ضد الاتراك. ودون الدخول في تفاصيل حياته السياسية يكفي الاشارة إلى أنه تولى الدفاع عن القومية العربية من منطلق إيديولوجي ومثالي، في وقت كادت فيه ان تندثر الفكرة ولم يكن قد مضى على ولادتها عقد أو عقدان من الزمان.

لقد دعا إلى وحدة عربية خارجة عن الروابط الاسلامية، ومن منطلق علماني بمفهوم معين هو ابعاد الدين عن موضوع القومية. وعرّف الامة بأنها مجموعة من البشر مرتبطة بالوعي ببعضها البعض تجمعها اللغة والتاريخ، وقال ان القومية العربية متأصلة في العقل والنفس العربية، وشدد على ضرورة وجود الدولة العربية الواحدة، ورفض الاعتراف بالحدود او الكيانات التي اعتبرها وليدة الانقسام والمناورة والمساومة (٣٥).

وخاض الحصري معارك فكرية مع اكثر من مفكر في مصر ولبنان، فكانت معارضته لدعاة الوحدة الاسلامية، ومعارضته لدعاة الاقليمية الذين يقولون بأمم متميزة داخل العالم الناطق بالضاد، وانتقد القومية السورية التي دعا لها انطون سعادة، وأيد عقيدة حزب البعث الذي ظهر في عام ١٩٤٧ لتشديدها على الوحدة العربية ولانه رأى تشابها بينها وبين مفهومه للقومية.

ولكن المجادلات الهامة كانت بينه وبين انصار المصرية والذين اعترضوا على فكرة القومية العربية. فهو منذ البداية يرى أن مصر يجب أن تكون زعيمة الامة العربية فالموقع الجغرافي وكثرة سكانها وثروتها ومستوى ثقافتها وتشكيلات الدولة وانتشار الادب والفصاحة كلها في نظره عوامل تجعل مصر «الزعيمة الطبيعية» للقومية العربية.

انتقد آراء طه حسين التي أدلى بها إلى مجلة «المكشوف» البيروتية حول الاكتفاء بالتعاون الثقافي والامتناع عن الوحدة السياسية قائلا ان الوحدة العربية لن تتطلب من المصريين التنازل عن مصريتهم، وهاجم دعواه بان المصريين يمتون بأصلهم وبدمهم إلى الفراعنة، سائلا له إذا ما كان يستطيع أن يذكر له أمة واحدة ترتبط بروابط الدم فعلا وحقيقة. ونفى قوله بأن تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ أي بلد آخر، ووصف ذلك بانه افتئات صارخ على الحقائق الواقعية. فتاريخ مصر اختلط اختلاطاً عميقاً وتشابك تشابكاً كبيراً مع تاريخ سائر البلاد العربية خلال القرون الثلاثة عشرة الاخيرة على الأقل. كما نفى ما ردده بأن اللغة ليست كافية لإقامة الوحدة. ونفى أيضاً قوله أن دعوة الوحدة العربية دعوة عاطفية وأكّد على أنها لمنفعة الشعوب العربية (٣٦).

ولم يقتنع الحصري بما ذكره طه حسين عن العقل العربي الحديث في مجلة «الهلال» والذي سبق الاشارة إليه، ووصفه

بأنه طريق ملتو للتشويش على فكرة الوحدة العربية. ورأى أن ما طرحه من ضرورة الاكتفاء بالتعاون في المجالات الثقافية دون التطرق للمسائل السياسية يعد مهرباً واضحا من قضية الوحدة، وذكره بما كتبه من قبل في أحد أعداد نفس مجلة «المكشوف» البيروتية حيث كان طه حسين قد ذكر ان مصر لن تدخل في وحدة عربية، حتى ولا في اتحاد عربي، سواء أكانت مساوية فيه للامم العربية الاخرى أم مسيطرة عليها (٣٧).

وكان انتقاده لكتابات أحمد لطفي السيد أبي الوطنية المصرية أكثر حدة، ذلك أن لطفي السيد كان متشددا ومتعصبا لوطنيته المصرية، وكتب عدة مقالات بعنوان «اقيموا الأسوار حول مصر»، وكان يرفض أي رابطة مع العرب. وفي إحدى مقالاته كتب أن اليونانيين استطاعوا الاحتفاظ بشخصيتهم رغم السيطرة التركية في فترة من الفترات لانهم تحصنوا فيها، ورد الحصري في أيار مايو ١٩٥٠ بان ذلك تحقق لهم بسبب حفاظهم على لغتهم. وفي كتابه «العروبة أولا» عام ١٩٥٥ تعرض لآراء سعد زغلول وهاجم قوله ان العرب مجموعةأصفار. تلك العبارة التي كان قد أفضى بها سعد زغلول لعبد الرحمن عزام عندما تحدثا عن قضية الوحدة العربية، وتساءل الحصري عما إذا كانت مصر صفرا وقت أن تصدّت للاحتلال، وكذلك سورية، والعراق، وغيرهما؟! (٣٨).

٤ - مصر والجامعة العربيـــة:

جاء قيام الجامعة العربية وليد عدة ظروف أفرزتها الحرب العالمية الثانية والعلاقات بين الدول العربية المستقلة آنذاك وبريطانيا. وقد لعبت مصر دورا ملحوظا في قيامها رغم عدم حماسها للفكرة في بداية الأمر.

كان هدف بريطانيا من قيام الجامعة امتصاص كره العرب لها بعد أن تدخلت في العراق وقمعت حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، وضرب النفوذ الفرنسي والنفوذ الالماني حيث أرادت استخلاص سورية ولبنان من قبضة السيطرة الفرنسية، وأرادت مواجهة الدعاية الألمانية خاصة وأن المانيا حظيت بإعجاب بعض الزعماء السياسيين العرب.

يضاف إلى ما سبق أن بريطانيا أرادت إفشال المحاولات السياسية الخاصة بالهلال الخصيب وشرق الاردن، وفضلت على ذلك ايجاد منظمة عربية يكون لها اليد الطولى في حركتها.

لقد تقدم نوري السعيد (رئيس وزراء العراق) باقتراح في كانون الأول، ديسمبر، ١٩٤٢ لضم سورية والأردن ولبنان وفلسطين معا في اتحاد عربي ينضم إليه العراق بعد تأليفه، وقد أسقط المشروع مصر والعربية السعودية وغيرها من البلاد العربية الأخرى في شمال إفريقيا وفي شبه الجزيرة.

ولم يكن عبد الله أمير شرق الأردن في ذلك الوقت أقل طموحا سياسيا من حكومة حفيد أخيه فيصل، بل على العكس من ذلك، فانه كان يعتبر نفسه بعد وفاة أخيه الوارث الوحيد والزعيم المرتجى لتحقيق فكرة القومية أو الوحدة العربية، فأعدّ تقريراً قدّمه إلى الوزير البريطاني بالشرق الأوسط يطلب فيه ضم سورية إلى الأردن وإعادة حدود سورية الكبرى إلى ما كانت عليه قبل الانتداب الفرنسي.

ولم تقتنع بريطانيا بمشروعات نوري السعيد وعبد الله حيث كانت تبحث عن زعيم يتولى قيادة الحركةوإنشاء الجامعة

العربية. ورغم أن العراق كان أقرب مودة إلى بريطانيا بسبب روابط الصداقة بين رجال الحكم في البلدين وبسبب العلاقات الاقتصادية البترولية التي كانت تجمع بين الحكومتين، إلا أن عدم استقرار الحكم في العراق وقيام بريطانيا بقمع ثورة رشيد الكيلاني ووقوف العراق إلى جانب دولتي المحور ضدها جعلها تفضل مصر في قيادة حركة إنشاء الجامعة العربية [٣٩].

لم تكن مصر متشجعة لانشاء الجامعة بعد التصريح الذي أشار فيه إلى ذلك مستر ايدن وزير الخارجية البريطانية في ٢٩ أيار، مايو، ١٩٤١، بسبب ظروف الحرب على الحدود المصرية الليبية، وسوء الأحوال الاقتصادية وانقسام قادة الرأي العام بخصوص موقفهم من بريطانيا. ولكن الموقف تغير في عام ١٩٤٣ على أثر ثقة بريطانيا في حكومة الوفد ورئيسها النحاس آنذاك، واعلانها من جديد عن تشجيعها لأية حركات بين العرب تعمل على تقرير الوحدة بينهم شرط أن ينال المشروع موافقة ورضا عامين .ولان بريطانيا، كما سبق القول، كانت تفضل قيام حكومة مصر بدور توحيد الحكومات العربية فقد اشارت على النحاس أن يقوم بهذا الدور [٤٠]. ووضح من البيان الذي ألقاه محمد صبري أبو علم (وزير العدل بالنيابة عن النحاس) في مجلس الشيوخ، أن الحكومة المصرية تفهمت رغبة بريطانيا وأخذت على عاتقها مهمة تبادل الرأي والمشورة بين الحكومات العربية للتمهيد لعقد اجتماع بمصر لوضع الصيغة الملائمة للاتحاد.

ووضح من المشاورات أن الحكومات العربية مختلفة. إذ ابدى لبنان استعداده لتعاونه على أساس احترام استقلاله وسلامة حدوده. والسعودية واليمن ترحب كل منهما بالتعاون الثقافي والاقتصادي وتأجيل تحقيق التعاون السياسي. والعراق ترغب في تكوين الهلال الخصيب أولا، وكذلك شرق الأردن سورية الكبرى بعكس سورية التي أبدت استعدادها لقبول كل القيود من أجل وحدة مركزية قوية.

وانتهت المناقشات بتأليف جامعة للدول العربية من البلاد العربية المستقلة، التي تقبل الانضمام إليها ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى مجلس جامعة الدول العربية تمثل فيه الدول المشتركة في الجامعة على قدم المساواة. وتم توقيع البروتوكول في ١٨ تشرين الأول، اكتوبر، ١٩٤٤ بالاسكندرية، وفي ٢٢ آذار، مارس، ١٩٤٥ تم توقيع الميثاق بقصر الزعفران بالقاهرة. ووضح من كلمة الحكومة المصرية أن مصر حريصة على استمرار جهود الوحدة العربية، وأن قضية العرب والعروبة سيكون لها أكبر نصيب من عنايتها فهي تؤمن بالوحدة العربية، وأن التعاون بين الشعوب العربية سيؤدي حتماً إلى خيرها وتحقيق أمانيها.

٥- ثورة ٢٣ تموز، يوليو، وتجسيد فكرة القومية العربية في مصر:

عندما ورد في فلسفة الثورة أن الدوائر التي تتحرك فيها مصر هي الدائرة العربية، والدائرة الافريقية والدائرة الاسلامية، وأن المنطقة العربية تبحث عن قيادة لها، لم يكن ذلك ينطلق من فراغ أو وضع مفاجيء، فجذوره بدأت في ما سبق ذلك من سنوات كما تمت الاشارة في الصفحات السابقة. وأما الجديد في الأمر فهو أن الثورة نقلت موقف مصر العربي إلى وضع أكثر جذرية وحسم ازاء الانتماء للعروبة وتبني قضية القومية العربية، ذلك أن الثورة وضعت حركة

القومية العربية على طريقها الطبيعي من حيث أن مصر أصبحت هي القيادة الأساسية وهو الأمر الذي اتجهت إليه أنظار القوميين العرب منذ سنوات كثيرة . كما اتخذت الحركة شكلها السياسي وتمّ ترجمتها في شكل مواقف ومجابهات سياسية مع أعداء الأمة العربية . ويضاف إلى ذلك أن الثورة أكسبت قضية القومية مضمونها الاجتماعي والاقتصادي لصالح الشعوب العربية الذي افتقدته طوال الفترة التي سبقت ١٩٥٢ .

لقد انتقد قادة ثورة يوليو موقف ثورة ١٩١٩ فيما يتعلق بمسألة القومية والذي أشار إلى عدم النظر خلف الحدود المصرية حيث لا خلاف بين الوطنية والقومية ، وصرحوا في كل مناسبة قومية بايمانهم بالقومية العربية وضرورة الوحدة العربية . وتأكيدا لتحقيق هذه الأمنية وتفاعل مصر مع سائر البلاد في العالم العربي ، فقد نص دستور ١٩٥٦ على الانتماء إلى الامة العربية وعدم الاعتراف بالحدود المصطنعة التي فرضها الاستعمار والمصالح الشخصية والأسرية . ومن المعروف أن دستور ١٩٢٣ كان قد عتبر مصر أمة بذاتها وأيد انعزاليتها .

والحقيقة أنه كانت هناك عوامل متعددة أسهمت في تحول مصر نحو القضية العربية إثر قيام ٢٣ تموز ، يوليو ، ووضعت موقف مصر في مستوى المرحلة التاريخية التي مرت بها الفكرة القومية ، وعلى رأس هذه العوامل تأتي القضية الفلسطينية التي ربطت مصير الاستقلال المصري الخارجي ودورها المنشود في العالم وفي المنطقة العربية بتبنيها وتحمل مسؤولياتها . ذلك أن نكبة ١٩٤٨ فتحت عيون قادة الثورة وقد كان الكثير منهم ضباطا في الجيش المصري الذي ذهب إلى فلسطين آنذاك — على اهتراء الانظمة العربية وفشلها في مواجهة الخطر الصهيوني الذي مثل التحدي الرئيسي ، ليس فقط لهذه الأنظمة وانما بالاساس لجوهر القضية العربية ذاتها .

كانت حرب ١٩٤٨ مناسبة بالغة الدلالة للكشف عن أبعاد العلاقة بين مصر والقضية العربية ، حيث كانت فرصة لالتقاء المقاتلين من رجال الثورة ببقية المقاتلين من الاقطار العربية لاكتساب الوعي القومي ، وكشفت لقادة الثورة أن الصراع مع الاستعمار لا يتعطل عن الصراع مع الصهيونية . وأن الاحتلال الصهيوني لفلسطين لا ينفصل عن المخطط الاستعماري الأشمل في المنطقة .

ومن المعروف أن الثورة دعت في سنواتها الأولى إلى انشاء قوة فدائية فلسطينية . وكان ذلك وراء الهجوم الاسرائيلي على القوات المصرية في الصبحة بقطاع عزة ١٩٥٥ ، وكانت هذه الحادثة من العوامل الهامة المباشرة في دفع الثورة إلى عقد صفقة السلاح التشيكية عام ١٩٥٥ ، واكتسبت الحادثة أهمية أكبر من أنها جاءت في غمرة المناقشة الكبرى حول الدفاع عن الشرق الاوسط .(٤١) .

كما تصدت الثورة منذ قيامها للأحلاف الأجنبية والاشكال الاستعمارية الجديدة لربط المنطقة العربية مرة أخرى بها بعد أن استعادت للكثير من دولها حريته السياسية اوكانت في طريقها الى ذلك . فعندما عقد حلف بغداد في ٢٤ شباط ، فبراير ، ١٩٥٥ واتضحت أهدافه في كونه حلفا دفاعيا يخدم المعسكر الغربي لتطويق الاتحاد السوفياتي . ولترسيخ التجزئة ، لذا رأت الثورة أنه إلى جانب ما تمثله هذه الأهداف من خطر على الأمة العربية فان قضية الأحلاف قصد منها الغرب إلهاء العرب عن مشكلتهم الاساسية وهي القضية الفلسطينية ، وعليه قامت الثورة بكشف هذه الأهداف وردت على سياسة

الأحلاف بميثاق الضمان الجماعي الذي عقد في إطار الجامعة العربية . ثم بمواثيق دفاع ثنائية مع سوريا والسعودية عام ١٩٥٥ ومع السعودية واليمن عام ١٩٥٦ . وأكدت الثورة أن العرب قادرون من خلال إقامة جبهات فيما بينهم على الدفاع عن أراضيهم لا أن تأتي قوة خارجية لتقوم بهذا الدور .

وفي المجال الدولي أكدت الثورة على معاني استقلال الارادة الوطنية فوقّعت اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤ كعلامة رفض لبقاء القواعد العسكرية كمظهر من مظاهر التبعية السياسية . ووقعت صفقة الاسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ كمظهر على رفض السيطرة الأجنبية فيما يتعلق بأهم عناصر القوة وهو السلاح . ورغم أن الصفقة لم تغير كثيرا في الصورة العسكرية أو في ميزان القوى في الشرق الأوسط نظرا لكثافة التسليح الامريكي والغربي لاسرائيل . إلا أنها كانت تعني بالدرجة الأولى كسر الحلقة الأولى والاساسية في سلسلة الاستعمار الغربي التي كانت تقيد حركة البلاد العربية كلها تقريبا . ثم كان تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ الذي أثبت أن الصراع مع الاستعمار لا يقتصر على مجرد الإعلان أو الحصول على الاستقلال السياسي وإنما بفرض السيطرة الوطنية على عناصر الثروة القومية[٤٢]

كانت هذه المواقف من العوامل الاساسية التي مهدت لقيام الوحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا . ذلك انها خلقت مناخا عاما بقوة الارادة العربية ورفعت الحس القومي عند الشعوب العربية وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وقفت الدول العربية إلى جانب مصر كل بالقـدر الذي يلائم ظروفه .

وقامت سورية بقدر كبير من المؤازرة والتأييد مصر في موقفها أثناء العدوان الثلاثي حيث اعلنت التعبئة العامة ، والأحكام العرفية . وقطعت علاقتها الدبلوماسية مع فرنسا وبريطانيا في اول تشرين الثاني نوفمبر ١٩٥٦ ، وحشدت قواتها بالأردن تخوفاً من عدوان إسرائيل عليها ، وقامت بقطع انابيب البترول الممتدة من العراق إلى البحر المتوسط عبر أراضي سورية . ولبنان وفي أماكن متعددة بالصحراء ونسف محطات ضخ البترول . [٤٣] .

تجمع هذا الموقف السوري مع عوامل أخرى مساعدة لتهيئة المناخ لقيام الوحدة بين مصر و سورية .فالدستور في كلاهما ينص على أن الشعب في كل منهما جزء من الأمة العربية (المادة الاولى في دستور ٥ أيلول سبتمبر ١٩٥٠ السوري . والمادة الأولى من دستور ١٦ كانون الثاني ، يناير . ١٩٥٦ في مصر) . كما سبق لكلا البلدين التقارب الثقافي والاقتصادي والعسكري .

وتحققت الوحدة بين البلدين في ٢٨ شباط . فبراير ، ١٩٥٨ على شكل الوحدة التامة او الاندماجية وقد كان الوفد السوري في مباحثات الوحدة هو الذي أصر على هذا الشكل وبصورة مستعجلة ، وكان الرئيس عبد الناصر يفضل البدء بالتعاون الثقافي والاقتصادي ثم التدرج إلى أنماط من الوحدة أكثر قوة الى أن تتحقق الوحدة الفيدرالية فالوحدة الإندماجية .

وكان بيان إعلان الوحدة قد ذكر أن الباب مفتوح لباقي الدول العربية التي ترغب في الانضمام سواء على نظام الوحدة الشاملة كما حدث بين مصر وسورية أو على نظام الاتحاد الفيدرالي . وكانت الفقرة الاخيرة تخص الدول التي تتبع النظام الملكي ، وكان أول من استجاب للوحدة الامام احمد إمام اليمن . وفي ٨ آذار مارس . ١٩٥٨ تم توقيع ميثاق

بالقاهرة انضمت بمقتضاه اليمن إلى الجمهورية العربية المتحدة وأطلق على الاتحاد الجديد اسم «اتحاد الدول العربية المتحدة».

ولم تمض ثلاث سنوات على قيام الوحدة حتى وقع الانفصال في ٢٨ أيلول، سبتمبر، ١٩٦١، وبه أصيبت حركة القومية العربية بضربة قاصمة حيث اهتز الاحساس العربي بالقضية القومية ودبت الفرقة بين الانظمة العربية.

وذهب كثيرون إلى تحليل مختلف العوامل التي ادت الى الانفصال وتركزت في مجملها على أن الاستعمار الغربي لم يطق قيام وحدة بين مصر وأية دولة عربية أو بين الدول العربية على أي وجه من الوجوه، فسعى إلى وضع المؤامـــرات لضرب الوحدة منذ قيامها، وتحالف في هذا مع اسرائيل والرجعية العربية من حيث الهدف وان اختلفت وسائل كل قوة من هذه القوى الثلاث، وكان لحزب البعث دور في وقوع الانفصال وهو الحزب الذي كان قد حل نفسه في ٢٣ شباط، فبراير ١٩٥٨ ووقع أعضاء بارزون فيه مثل صلاح البيطار على وثيقة الانفصال. والتنظيم الشعبي الذي كان قد تكون في أعقاب الوحدة لم يملأ الفراغ السياسي الذي خلقته عملية حل الأحزاب، بل كان الاتحاد القومي فراغا منذ انشائه.

ولا شك أن اخطاء القيادة المصرية آنذاك فيما يتعلق بالتعامل مع القوى السياسية المختلفة في سورية كان لها دور في عدم استقرار الحياة السياسية في دولة الوحدة.

كما كانت تجربة ١٩٥٨ تجربة متعجلة فيما يتعلق باتمام الاشكال الوحدوية حيث جاء دستور الجمهورية العربية المتحدة معبرا عن أقصى الصور الوحدوية الذي فيه تتلاشى الخصائص الذاتية للاطراف المشتركة، وتحدث عملية تكامل سياسي واندماج وانصهار كبيرين ويكون قد تحقق للتجربة الوحدوية قوة الدفع الذاتي.

ومن زاوية اجتماعية فان المضمون الاشتراكي الذي طرحته مصر وأرادت تطبيقه على الحياة الاقتصادية في سورية لم يتوافق ومصالح الطبقات المؤثرة وذات النفوذ في سورية. لانها كانت تتكون من كبار الاقطاعيين وأصحاب رأس المال وكبار التجار.

ورغم تصاعد دور الطبقة الوسطى وبالذات إحدى شرائحها التي اخذت في تبني أفكار التقدم والتحرر الوطني والاجتماعي منذ بداية الخمسينات سواء في مصر أو سورية. إلا أن ظروف التعثر في تجربة الممارسة الوحدوية بين (١٩٥٨–١٩٦١) سواء بسبب تباين المواقف السياسية والمنافع والمصالح، او بسبب الظروف الخارجية والمؤامرات لاستقطاب أبناء هذه الطبقة وتفتيتها من الداخل. قد جعلت الطبقة العليا القديمة في سورية (الاقطاع والرأسمالية وكبار التجار كما سبق القول) تتمكن من الانقضاض عليها والعودة إلى سطح الاحداث السياسية مرة أخرى وضرب تجربة الوحدة. وساعد القوى القديمة على النجاح أن تجربة الوحدة في حقيقة الأمر تمت في غياب مناخ ديمقراطي لو توفر لكان بامكانه أن يدفع إلى مقدمة المجتمع بطبقة عاملة تتسلم المضمون الاشتراكي الذي طرحته الوحدة [٤٤].

٦– مصر والاتجاه القطري بعد الانفصال في ١٩٦١.

عندما قامت الوحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسورية كان في الساحة العربية ثلاث قوى بارزة هي: التيار الذي مثله

حزب البعث والتيار الناصري او تيار ثورة ٢٣ يوليو ثم تيار حركة القوميين العرب ، التقوا جميعا حول غاية الوحدة رغم تباين آرائهم واختلاف اساليبهم السياسية ودون العودة إلى تكرار الظروف التي أدت لهذا وقيام وحدة ١٩٥٨ حيث تم التعرض لها في السطور السابقة فانه يمكن القول ، من وجهة نظر هذه القوى الثلاث ، أن البعث أراد الوحدة لأنها فكرة غالية عليه وحلمه الأول ، والقوميين العرب آزروا قيامها انطلاقا من اقتناعهم بالدور الهام لمصر وخاصة عندما أعلنت ارتباطها القوي بحل القضية الفلسطينية ، وتيار الثورة كان متسقا مع اتجاهه إلى الوحدة وفقا للمبادىء والأسس القومية التي طرحها منذ ظهوره قويا ومؤثرا على الساحة العربية.

لقد رأى حزب البعث أن الأمة العربية لها رسالة كامنة في داخلها هي أن تتحد وتكون أمة واحدة ذات ايديولوجية قومية ، وقال بان قضية الوحدة تسبق كل القضايا حتى قضية النضال ضد الاستعمار في سبيل التحرر الوطني.

يذكر ميشيل عفلق في كتابه «في سبيل البعث» : «كانت الوحدة هي الرابطة المكينة التي تجمع الأفراد وتطبعهم بطابع واحد ، وتخلق فيهم نواة واحدة ، ثم صقلتها وغذتها وحدة اللغة والروح والتاريخ والثقافة» (٤٥). ويقول أيضا : «ان الامة العربية تتأهب لاستقبال حياة جديدة ، وتناضل لاستكمال حريتها ووحدتها» (٤٦).

وأصر البعث على أن تتحقق الوحدة الشاملة ، وأعطى للوحدة مفهوما شعبيا وأنها تتحقق بالمنظمات السياسية الشعبية أكثر مما تتحقق بالاتفاقيات الحكومية ، ولكن هذه التأكيدات لم تنف إمكانية اشتراكه وتعاونه في أية حركة وحدوية بين الحكومات العربية. واتسم فكر البعث أيضا باعتقاد عام لدى زعمائه بأنهم أصحاب الدور التاريخي لتحقيق الوحدة العربية في المنطقة العربية وأن هذا الدور الرائد يقتضي منهم العمل داخل الجهود الوحدوية سواء تمت على مستوى جماهيري أو رسمي. ورغم أنهم لم يكونوا في السلطة مع قيام الجمهورية العربية المتحدة إلا ان محاولاتهم للعودة لها لم تكن غائبة عن الأذهان. وحيث قال البعث بأن الوحدة مطلب شعبي يقتضي ربطها بحاجات الجماهير فقد ترك الباب مفتوحا للافكار الاشتراكية لكي تعبر عن موقفه من التغير الاجتماعي على ألا يختلط هذا بأولوية عامل الوحدة عن كل المبادىء الاخرى.

و «التيار الناصري» أو تيار ثورة ٢٣ يوليو فقد كان مع الاتجاه العام للوحدة ولكن مع التدرج وعدم التسرع في إعلان الشكل السياسي لها. ونظراً لأن فكر الثورة عبـّـر عن تبنّي قضية الاشتراكية والتحرر ومن ثم رأى أن الوحدة تتحقق من خلال تحقيق الحرية والاشتراكية. فبعد أن يصبحا حقيقة واقعية تصبح الوحدة مسألة منطقية وطبيعية. وهكذا فإنه برغم تشدده في التمسك بفكرة الوحدة إلاّ أنه تحفظ في أشكالها وصورها ومراحلها.

وأما حركة القومية العربية فقد تكونت بعد عام (١٩٤٨) على أثر وقوع نكبة فلسطين ، وكان وراء ظهور الحركة مفكر عربي ، كان يحاضر في الجامعة الامريكية ببيروت هو قسطنطين زريق. وقد دعا إلى أن تتحقق الوحدة بين الشعوب العربية على أسس التضامن بينها أكثر من قيامها على أسس الاتفاقيات الحكومية كما أن مضمونها يجب أن يكون سياسيا ديمقراطيا وشعبيا وتقدميا ، وعليه فهدف القومية أن تعبئ لامكانيات السياسية والاقتصادية والعسكرية لتحرير فلسطين من الصهيونية ، ولتحرير بقية أقطار العالم العربي من الامبريالية الجديدة التي تتزعمها القوى الغربية الاستعمارية.

وقد التقط دعوته احد تلاميذه من الجامعة الامريكية هو جورج حبش ، واستطاع أن يضيف إليها عناصر أخرى للنضال نحو القضية القومية هي النضال ضد التجزئة السياسية والامبريالية واسرائيل ، وكون مع بعض زملائه وأصدقائه حركة القوميين العرب .

مع دخول الوحدة في مجال الممارسة بدأت التباينات الفكرية خاصة بين البعث والناصريين تحدث أثرها السيء حتى وقع الانفصال الذي لم يكن البعثيون طرفا مباشرا فيه . ومن يعد إلى محاضر جلسات الوحدة التي عقدت في مارس ، ابريل ، عام ١٩٦٣ ، وهي المحاولة الثانية والتي كانت ستجمع كلا من مصر وسورية والعراق ولكنها باءت بالفشل ، يكتشف استمرار الخلافات الفكرية ، وفي هذه المباحثات وضح مدى الشك والريبة بين الفريقين من حيث امكانية التعاون السياسي [٤٧]

لقد أدت حركة الانفصال في ١٩٦١ إلى نتائج في غاية الخطورة بالنسبة لمسار الحركة القومية العربية ، وأصبح المنظور المصري لقضية الوحدة جوهر الجدل والحوار بين مختلف شرائح الحركة القومية منذ ذلك التاريخ . وحتى يتسنى لنا معرفة الآثار السياسية لهذا الموضوع - بشكل موجز - يمكن القول أن الجدل والحوار دار حول نقطتين أساسيتين هما أسباب الانفصال ، ومدى ارتباط الحركات العربية القومية بالحركة الناصرية أو بتيار ثورة ٢٣ يوليو . وأوضح ردّ الفعل إزاء الموضوعين أن الحركة القومية العربية قد دخلت منذ ذلك التاريخ في مرحلة العمل القطري ، وأصبحت « القطرية » هي السمة الغالبة على كل اتجاه يرفع لواء القومية . وللتوضيح يقصد بالقطرية أمرين : النظرة الجزئية والاستقلالية لموضوع الوحدة (مضمونها وشكلها) ، والتفتت على مستوى كل حركة وبالتحديد داخل البعثيين والقوميين العرب .

انقسم تيار البعث مثلا في ثلاثة اجنحة تقريباً . أحدها رأى أن سبب الانفصال هو الرجعية والاستعمار والاقطاع وأن القوى المعادية للاشتراكية تكالبت على حزب الوحدة ، وعبر هذا الجناح عن موقف اشتراكي حاد وتيار آخر انفصالي أراح نفسه من قضية الوحدة ، وتيار ثالث استمر على موقفه التقليدي وقال ان الانفصال وقع بسبب تدخلات السياسة المصرية . وكل تيار بالطبع كان له موقفه من التعاون مع التيار الناصري أو مع تيار ثورة يوليو او بمعنى اشمل كان له موقفه الخاص من اندماج الحركات القومية العربية وارتباطها بتنظيم سياسي شعبي واحد . من قالوا بأن السبب كان لعدم تطبيق قواعد الاشتراكية الحقيقية انتقدوا منهج ثورة يوليو الاجتماعي ورأوه قاصرا عن الوفاء بالمطالب الجماهيرية العربية ولذا رفضوا الاندماج مع تيارها ، وأما التيار التقليدي في حزب البعث فبسبب حساسيته السياسية من الحكم الناصري فقد رفض بدوره العمل معه وظل عامل الشك والريبة قائما بينهما .

وبالمثل فان حركة القوميين العرب اختلف اعضاؤها في تقييم الانفصال وفي العمل داخل الحركة السياسية الشعبية القومية الواحدة التي اقترحها عبد الناصر بعد ١٩٦١ وفي اطار وحدة الهدف القومي . ولقد حدث هذا رغم التقاء فكرهم مع فكر ثورة يوليو القومي في كثير من الزوايا . فهم منذ بداية الستينات بدأوا يطرحون بشدة أفكار الاشتراكية

والوحدة. وقالوا بأن الوحدة تتحقق بالنضال الشعبي ومن خلال التنظيم السياسي الشعبي القومي. ونادوا بالثورة العربية وبأن الطريق إلى الوحدة يجب أن يكون ثوريا ومن خلال نظرية ثورية وحزب ثوري، يقول محسن ابراهيم: «ان ما تحتاجه الثورة العربية هو فكر عقائدي يترجم المثاليات المطروحة إلى عقيدة تحيط أولا بالواقع الراهن إحاطة علمية وتحلله، وتتسم بالمعرفة العلمية ولا تقيم احكامها استنادا إلى الاخلاقيات فقط. وعلى الفكر العقائدي أن يترجم المثل والغايات لبرسم صورة المجتمع الأفضل» (٤٨). كما رأى القوميون العرب أن البداية في المسألة القومية هي الواقع العربي بتناقضاته، وأن النظرة العلمية الموضوعية تعني التعامل المباشر مع هذه التناقضات باختلاف اشكالها. ومن خلال محتوى اشتراكي وديمقراطي وشعبي وباستمرار النضال يمكن التوصل إلى الصيغة الوحدوية المرتقبة.

أصبح القوميون العرب بدورهم فريقين أحدهما يقول بالاندماج مع تيار ثورة يوليو القومي واعتبار حركة القوميين العرب حركة ثانوية وعليها أن تندمج مع الحركات الاخرى (أي يتبنى الفكرة التي طرحها عبد الناصر بتوحيد حركة التنظيمات العربية). وآخر قال أن قضية الوحدة طرحت قبل أوانها. «ان قضية الاشتراكية لا بدّ أن تأتي أولاً». ولا بدّ من تجانس المجتمعات العربية عن طريق ثورات اشتراكية باستراتيجيات مختلفة وليس من خلال استراتيجية عربية واحدة.

وجاءت نكسة ١٩٦٧ لتعمل ليس فقط على تجميد الحركة القومية العربية عند هذا «المنعطف القطري». وانما لتضيف تحديات جديدة أمام النظم والشعوب العربية. وتركزت حول التخلص من آثار العدوان الاسرائيلي واستعادة الحقوق الفلسطينية. وكانت فلسفة التضامن العربي «هي إفراز طبيعي لمسار العلاقات العربية الملائمة لظروف وواقع ما بعد ١٩٦٧ على المستوى الاقليمي (العربي) والعالمي وهي فلسفة تتماشى في روحها مع المنعطف القطري السالف توضيحه.

واتساقا مع نفس الاتجاه أصبح المضمون الوظيفي للوحدة (الوحدة من أجل التنمية) أحد العناصر الأساسية في اطار فلسفة التضامن العربي من جهة. وتعدد الاستراتيجيات والطرق القطرية من جهة اخرى. كما أصبح من السهل تبرير أو تفسير مؤشرات الحذر والتمهل في دخول النظم العربية في تجارب وحدوية جديدة.

وبالنظر إلى أشكال التجارب الوحدوية التي حدثت منذ أوائل السبعينات بين مصر والدول العربية الأخرى يمكن اكتشاف مدى اتساقها مع ما انتهت إليه خبرة الحركة القومية العربية الآن، وفيها ما يؤكد على معاني التعاون الوظيفي والاهتمام اساساً بالتمهيد لقيام الوحدة الشاملة في المستقبل.

في ١٧ نيسان، ابريل ١٩٧١ وقّع رؤساء مصر وسورية وليبيا وثيقة قيام اتحاد الجمهوريات العربية والذي كان استمراراً لميثاق طرابلس الموقع في ٢٧ تشرين الثاني نوفمبر. ١٩٧٠. ولم يبدأ العمل بالوثيقة فعلا إلا في ٢٠ آب، اغسطس ١٩٧١ بسبب بعض الاحداث السياسية التي وقعت في مصر وكان من المفروض أن تنضم إليه السودان ولكن وفقا لتلك الوثيقة فقد ترك الباب لها للانضمام في الوقت الملائم. وقد كان في حقيقته اتحاداكونفدراليا أكثر من أي شيء آخر حيث احتفظت كل دولة بكامل استقلالها وسيادتها، فقط أشار إلى ضرورة وضع سياسة خارجية مشتركة والتنسيق في مسائل الحرب والسلام وتنظيم وقيادة الدفاع عن الاتحاد وتخطيط الاقتصاد بطريقة مشتركة.

وفي مقدمة الوثيقة ورد أن الدول الثلاث أرادت تكوين جبهة سياسية فيما بينها ترتبط بميثاق العمل القومي في اتحاد الجمهوريات العربية من أجل تحقيق التفاعل والترابط بين شعوب الاتحاد وترسيخ أسس الديمقراطية وقيمها وتوحيدها منطلقات وأساليب العمل السياسي في الجمهوريات الثلاث وخلق المناخ الملائم لقيام الحركة العربية الواحدة (٤٩)

وحقق الاتحاد بعض النتائج السياسية للبلدان الثلاثة ، كما أنه واجه مشكلات مختلفة تولدت بفعل بعض مظاهر الثورة في العلاقات بينهم ، وبصفة عامة ظلت القيمة الوحدوية له مرهونة بتحقيق انجازات محددة فقط ، وفي اطار كونه اتحاداً كونفدراليا ، ولذلك عندما أرادت ليبيا التعجيل بقيام وحدة اندماجية مع مصر في تموز ، يوليو، ١٩٧٣ لم يكن الأمر ملائما مع الموقف العام من أسلوب الحركة القومية العربية.

من زاوية أُخرى فإن تجربة التكامل الاقتصادي والعمل السياسي المشترك بين مصر والسودان والتي بدأت بتوقيع منهاج العمل السياسي والاقتصادي بينهما في ١١ شباط (فبراير) ١٩٧٤ ، تعدّ مثلاً على صورة التعاون الوظيفي . وقد جاء فيه أن رئيسي البلدين اتفقا على تعميق وتطوير الروابط بين الشعبين في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية ، والعسكرية عن طريق إقامة مؤسسات تضمن استمرار التعاون .. واتفقا على تشكيل لجنة وزارية عليا من (وزراء الخارجية والاقتصاد والري والنقل والزراعة والاعلام والتربية والتعليم والأوقاف وينبثق عنها لجان فنية متخصصة في الشؤون الاقتصادية والثقافية وشؤون النقل والمواصلات . كما اتفق على قيام لجنة سياسية عليا تشرف على الأعمال الفنية السابقة . وفي ١٥ تموز (يوليو) ١٩٧٦ تمَّ توقيع اتفاقية للدفاع المشترك بين البلدين لفرض حماية أمن كليهما بصورة متبادلة .

المراجع

١. البرت حوراني . الفكر العربي في عصر النهضة (بيروت : دار النهار للنشر . ١٩٧٥) . ص ٣١١ .
٢. نور الدين زين . نشوء القومية العربية (بيروت : دار النهار للنشر . ١٩٧٢) . ص ٢٠ - ٢٩ .
٣. د. منير موسى . الفكر العربي في العصر الحديث (بيروت : دار الحقيقة . ١٩٧٣) . ص ١٩٧ .
٤. ألبرت حوراني . مصدر سابق . ص ٣٣٥ .
٥. أنيس صايغ . تطور المفهوم القومي عند العرب (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر . ١٩٦١) . ص٦٣ - ٦٥ .
٦. د. أحمد عبد الرحيم مصطفى . تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية . ١٩٧٣) . ص ٨٧ - ٨٨ .
٧. عبد الله النديم . التنكيت والتبكيت . في ١٨٨١/١٠/٢٣ .
٨. عبد الله النديم . مجلة الاستاذ . ص ١٠٠٤ - ١٠٠٥ .
٩. ألبرت حوراني . مصدر سابق . ص٣٢٥ .
١٠. عبد الله النديم . التنكيت والتبكيت . في ١٨٨١/١٠/٢٣ .
١١. عبد الله النديم . التنكيت والتبكيت . في ١٨٨١/١٠/١٦ .

١٢. الشيخ علي يوسف، المؤيد، في ١٨٩٢/١٢/١٩.
١٣. الشيخ علي يوسف، المؤيد، في ١٩٠٧/٦/٢.
١٤. ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥ - ١٩٣٦ (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢)، ص٢٣٣ - ٢٤٠.
١٥. أنيس صايغ، مصدر سابق، ص ٦٧.
١٦. المؤتمر العربي الأول - صادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر (القاهرة : مطابع البوسفور، ١٩١٣)، ص١٨.
١٧. أنيس صايغ، مصدر سابق، ص ٦٨-٧٠.
١٨. ألبرت حوراني، مصدر سابق، ص٣١٣-٣٣٤.
١٩. محمد رفعت، التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة (القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٤)، ص١٠٠.
٢٠. د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصدر سابق، ص ٤٧ - ٥٠.
٢١. أحمد لطفي السيد، الجريدة، في ١٩١٣/١/٢.
٢٢. ذوقان قرقوط، مصدر سابق، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.
٢٣. نبيه بيومي عبد الله، تطور الفكرة القومية العربية في مصر (القاهرة : الهيئة المصرية العاملة للكتاب، ١٩٧٥)، ص٥٨.
٢٤. د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصدر سابق، ص٨٨.
٢٥. نبيه بيومي عبد الله، مصدر سابق، ص ١٧٤ - ١٨٢.
٢٦. المصدر السابق، ص ٦٩.
٢٧. مجلة الهلال، عدد نيسان (ابريل) ١٩٣٩، ص ٤٩.
٢٨. المصدر السابق، ص ١٢ - ١٣.
٢٩. المصدر السابق، ص ٥١.
٣٠. المصدر السابق، ص ٣٤.
٣١. نبيه بيومي عبد الله، مصدر سابق، ص ١٥٠ - ١٥١.
٣٢. مجلة الهلال، نيسان (ابريل) ١٩٣٩، ص ٣٢.
٣٣ المصدر السابق، ص ٣٣.
٣٤. نبيه بيومي عبد الله، مصدر سابق، ص ١٥٠.
٣٥. د. خيرية قاسمية، مائة عام على ميلاد ساطع الحصري، مجلة الموقف العربي، ص ٥٠ - ٥٦.
٣٦. ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية (بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٦١)، ص ١١٩.
٣٧. المصدر السابق، ص ١٣٦ - ١٤٢.
٣٨. ساطع الحصري، أبحاث مختارة في القومية العربية (القاهرة : دار المعارف، ١٩٦٤)، ص ٤٦٨ - ٤٦٩.
٣٩. محمد رفعت، مصدر سابق، ص ٢٥٤.
٤٠. الثورة والتغير الاجتماعي، إشراف السيد يس (القاهرة : مركز الدراسات السياسية)، ص ١١٥.
٤١. محمد نبيه بيومي، مصدر سابق، ص ١٨٤ - ١٨٦.
٤٢. المصدر السابق، الثورة والتغير الاجتماعي، ص ١١٣.
٤٣. نبيه بيومي عبد الله، مصدر سابق، ص ٢٢٣.
٤٤. د. سعد الدين ابراهيم، «نظرة ثانية للاطار الاجتماعي ومسألة الوحدة»، مجلة دراسات عربية، العدد ٨، حزيران (يونيو) ١٩٧٢، ص٢٧-٣١.
٤٥. ميشيل عفلق، في سبيل البعث (بيروت : د.ت.)، ص ٧٧.
٤٦. المصدر السابق، ص ٨٦.

٤٧. محاضر جلسات مباحثات الوحدة، كتب قومية (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٣)، صفحات ٣٣، ١٠١.

٤٨. محسن ابراهيم، في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي (بيروت : دار الفكر الجديد للطباعة والنشر، ١٩٦٢)، ص ٤٤.

٤٩. السياسة الدولية، تموز (يوليو)، ١٩٧١، ص ٢٣٧ - ٢٣٩ .

٥٠. السياسة الدولية، كانون الثاني (يناير)، ١٩٧٨، ص ٧٣.